بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الانبار
كلية التربية للبنات
قسم اللغة العربية

الأدب ودوره في التواصل الحضاري بين الشعوب

ا.م.د.نصرة أحميد جدوع الزبيدي

تموز 2013

المدخل: ماهية الأدب وعوامل التواصل الحضاري:

معروف أن الأدب نتاج إنساني رفيع يمثل أسمى إبداع الإنسان, ذلك لأنه يعبر عن أدق مكنونات النفس البشرية ورؤيتها للعالم كما انه يقدم خلاصة التجارب الإنسانية للآخرين ,كما انه نافذة يطل عليها الإنسان على العالم,والاهم من ذلك انه يعمل على مد جسور التواصل بين الذات والآخر بما يحمله من سمة إنسانية تعد أهم خصائصه,من هنا نفهم كيف يؤدي الأدب وظيفة الرابط بين الحضارات بوصفه احد مكونات الثقافة الأصيلة التي تسعى للتحاور مع الثقافات الأخرى ,الأمر الذي يكسب الأدب الذي يجمل هذه الملامح هوية عابرة للغات والحدود ,وبالعودة إلى مفهوم الأدب نفسه تتكشف لنا حقيقة الدور الذي يقوم به في حياة الإنسان فهو في مفهومه البسيط كتابات من ملامحها الجوهرية أن يكون فيها التعبير والشكل لهما صلة وثيقة بمعاني ومناحي اهتمام ذات دلالات شاملة ودائمة**(1)**وبهذه العمومية هو مجموعة كتابات يتخذها الإنسان في زمان ما أدبا له,فهو يجعلنا نرى العالم أحسن وعند رولان بارث يعني ان نكون متأكدين مما ندعي **(2)**وبصفته العربية يعرف بأنه علم يقصد به الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم, وتطور مفهومه ودلالته عبر العصور حتى اتخذ صيغته النهائية بعد أن كان يعبر عن سلوكيات وأخلاقيات اجتماعية مثلت جوهر الأدب العربي وابرز سماته**(3).**

وبهذه التوصيفات تترسخ للأدب سمة الإبداعية التي لا تتكامل إلا بترابط العوامل الفنية والبيئية والنفسية وبقية العوامل المسؤولة عن إنتاج النص الأدبي.

وبالنسبة لمفهوم التواصل الحضاري فقد عثر في الأدبيات الفكرية على مقابلات ومقاربات اصطلاحية تصب جميعها في المصب نفسه والمتمثل باستثمار الطبيعة المرنة للأدب في لتواصل مد الجسور مع الآخر وهو نابع من ضرورات ثقافية تقوم على الانفتاح والتفاعل مع الثقافات الأخرى, ولم يشهد التاريخ البشري نمو حضارة وازدهارها تحت ظلال العزلة والتقوقع داخل الذات ولا يصيبها الطمس والاندثار طالما استفادت مما يحيط بها**(4)**ومثل هذه العملية التبادلية تقوم على مبادئ الحوار والأخذ والعطاء بلا تعصب أو انغلاق بعيدا عن الفوارق الدينية والفكرية ,وقد يكون لعناصر محددة الدور الأكبر في تحقيق هذا التواصل في مقدمتها المجاورة الجغرافية وكذلك الغزو والحروب والعلاقات الثقافية والهجرات المتبادلة وغيرها,على أن جوهر التواصل الحقيقي يكمن في الحوار وهو معلم حضاري يميز أية امة وشامل برأينا لكل ما سواه من العناصر,فمنه الحوار الفكري القائم على محاكاة الآخر ومنه الحوار غير السلمي الذي يقع بين المُستعمِر والمستعمَر,ومن شروطه

الندية والتكافؤ وعدم استعلاء طرف على آخر وقد لا يعني بالضرورة التطابق بين المتحاورين وإنما يقتضي استيعاب مستويات الاختلاف واحترام التنوع والسعي لبناء الثقة المتبادلة لتحقي غايات الحوار الحضاري**(5)**,وفي هذا الجانب يرى روجيه غارودي ان قيمة هذا الحوار بين الحضارات تتجاوز الفائدة التاريخية إلى النهوض بدور أمامي لأجل ما يسميه اختراع المستقبل**(6)** كما يرى أن حوار الحضارات الحقيقي لا يزال في طور بدء المغامرة البشرية وهو أكثر الأمور إلحاحا لإقامة العلاقات مع سائر البشر ومع المستقبل المشترك**(7)** ويتجاوز بذلك التجارب لسابقة لنماذج الحضارات القديمة وفي مقدمتها العربية الإسلامية التي تحظى عنده بتقدير خاص والتي اكتسبت سمتها العالمية من خلال اتساع دورها وانصهار الحضارات المتنوعة فيها,وربما كان لاتساع الدولة العربية الإسلامية على وفق مفهوم القوة العسكرية هو السبب الذي يجعله يستثني تجربتها الحضارية كما استثنى غيرها ,لان مفهوم حوار الحضارات عنده مفهوم صاف لا يشوبه العنف.

وتتمثل منزلة الأدب بتوصيفه السابق في كونه إحدى لغات الحوار والتواصل الحضاري وهناك أمثلة لا يمكن نسيانها شكلت لبنة أساسية في التبادل والتواصل ومنها العمل الأدبي المعروف بألف ليلة وليلة والتي يسميها الغربيون بالليالي العربية(Arabian night)وهي بالأصل حكايات هندية نقلها الفرس إلى العربية**(8).**

وهناك مقومات ومعوقات تتعلق بقيام الأدب بدوره الفعال في عملية التواصل الحضاري ستكشفها هذه الدراسة في صفحاتها القادمة.

أولا- مقومات الأدب التي تحقق التواصل الثقافي

من الطبيعي أن تتوافر جملة من العوامل الساندة للأدب الذي يؤدي وظيفة التواصل الحضاري, وفي مقدمة هذه العوامل ما يتعلق بإخراج الأدب من محليته وحدوده القطرية الضيقة وهي ما يسميه دارسو الأدب المقارن بالسمة العالمية للأدب ومعناها خروج الآداب عن حدودها القومية طلبا لكل ما هو جديد مفيد تهضمه وتتغذى به استجابة لضرورة التعاون الفكري والفني بعضها مع بعض **(9)**ومن الطبيعي أن تتصف الآداب العظيمة التي تتهيأ لها الظروف التاريخية المناسبة بصفة العالمية وهذه الظروف كما ذكرنا قد تتعلق بعناصر القوة والانتشار من خلال الحروب والغزوات إلى جانب المنزلة الحضارية الراقية,وهذه العالمية تدفع باتجاه تعزيز النظرة العميقة الشاملة للأدب القومي باعتباره أدبا عالميا يغنى بصلاته بالآداب الأخرى لان النتاج الإنساني وحدة متكاملة برغم اختلاف اللغات والثقافات,وقد كان لتبادل التأثيرات والتيارات الأدبية والنقدية بين الآداب المتنوعة اثر كبير في نهضتها جميعا ومن ثم تعزيز التواصل الحضاري والفكري بين الأمم ,ولنا مثل واضح في العصر العباسي حيث تنوع مناحي الأدب ونهضته الكبيرة وإسهام جزء كبير من المسلمين من غير العرب في هذه النهضة وتأثره بآداب الفرس والهنود واليونانيين ومن ثم تصدير هذا التلاقح الفكري إلى أوربا من خلال بوابتي الأندلس وصقلية والحروب الصليبية لاحقا والتي مثلت عند البعض لقاءا داميا واتصالا وثيقا بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي والذي قاد إلى تبادل ثقافي يشير اليه الكثير من الدارسين العرب والغربيين **(10)**ونحن أمام مثالين ساطعين لتأثير الحضارة العربية وآدابها بالغرب عن طريق نقاط الالتقاء التي تهيأت لهما من خلال اكبر أديبين في ألمانيا وفرنسا وهما جوته وفيكتور هيجو,ومن قبلهما دانتي في ملحمته الإلهية التي يرجعها الباحثون في أصل التأثر بها إلى رسالة الغفران لأبي العلاء المعري,فجوته الألماني عني منذ صباه بكل ما هو شرقي واقبل على دراسة تاريخ الشرق وآدابه ودرس العرب في جاهليتهم وإسلامهم وتظهر بجلاء شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) في أشعاره وقصصه لا بل انه قرأ القران بترجمته الألمانية واقتبس منه الكثير لاسيما في ديوان الأخير الذي اسماه(الديوان الشرقي للمؤلف الغربي) إلى جانب قصيدته المعروفة ب(الهجرة) التي يعبر فيها عن حلم الهروب من المدينة الأوربية إلى ماضي الشرق وحياته الوديعة وحضارته**(11)**وأما الأديب الفرنسي المعروف فيكتور هيجو فله مع الشرق والإسلام قصص تروى تجسد قمة التلاقح الفكري الحقيقي من خلال أشعاره المتمثلة بديوانه المعروف (الشرقيات) ومن قبله (قصائد وأناشيد) كان الشرق حاضرا فيها ثم قمة التأثر والتلاقح من خلال قصيدتيه التي استوحى فيهما القران الكريم وملامح

شخصية النبي محمد(صلى الله عليه وسلم)وهما (زلزال الأرض)و(السنة التاسعة للهجرة) إلى جانب تأثره المعروف بألف ليلة وليلة**(12)** .

ولاشك في أن الإسلام وتأثيره الحضاري الكبير وشخصية النبي الكريم كان لهما ابلغ الأثر في رفد الأدب العربي بالكثير من القوة التي رفعته بين مصاف الآداب العالمية,وارتباط سمة العالمية بما وصلت إليه الحضارة العربية ن تقدم ورقي كبيرين إبان العصر العباسي,وما نتج عن انصهار عدد من حضارات الأصقاع غير العربية شرقا وغربا من تلاقح وتواصل كبيرين .

ومن السمات الأخرى التي تعين الآداب على تحقيق مهمة التواصل الحضاري السمة الإنسانية وحيث يتجاوز الأدب الواحد الخطاب الضيق إلى تعزيز القيم التي تهم البشر أجمعين ,وبالنسبة للأدب العربي فقد انعكست الجوانب الأخلاقية والإنسانية والاجتماعية التي حملها على آداب الأمم التي جاورها العرب واستعمروها يقول فوريل في كتابه تاريخ الشعر البروفانسي:(هناك ما يدعونا إلى الحكم بان العرب قد اثروا بما ضربوه من أمثلة حياتهم تأثيرا فعالا في الحضارة الأخلاقية والاجتماعية التي انتشرت في جنوبي فرنسا ولا سيما الجانب المسيطر المتميز من تلك الحضارة وهو ما يختص بمبادئ الفرسان وآدابهم ونمطهم)**(13)** ومن المؤكد ان التأثير العكسي للغرب قد انعكس لاحقا على الشرق بعد ان نهضت أوربا وحملت لواء الحضارة وصار تأثير القيم التي نادت بها الثورات الكبيرة كالثورة الفرنسية قويا وفاعلا عند المصلحين العرب ممن تلقوا دراستهم لاحقا في البعثات العربية الأولى التي أرسلت إلى فرنسا وكذلك من خلال غزو نابليون لمصر وما نجم عنه من ردة فعل حضارية واضحة عند العرب الذين عانوا من تبعات التخلف والتراجع الحضاري إبان الحكم لعثماني لهم,وتمتد تيارات التأثير في العصر الحديث وتتشعب لاسيما في الحركات النقدية والأدبية التي انتقلت بسبب عوامل عديدة في مقدمتها الترجمة والآداب المكتوبة بلغات أخرى غير لغات مبدعيها وغيرها,وهكذا كان الأدب رسولا يقرب بين الأمم وحضاراتها المتنوعة ويفرض إيقاعا متحضرا يتجاوز حيثيات التنافس والصراع والحروب التي لا يمكن ان نتوقع امتلاكها لوجه ايجابي لولا توفيرها غير المقصود لعوامل الالتقاء الفكري ومادته الأدبية.

ولابد من الإشارة إلى نقطة مهمة تتعلق بما يمكن ان نسميه الخصوصية الحضارية لكل أدب وهو يسير في طريق الالتقاء مع الآداب الأخرى ,إذ لابد من وجود حدود لما يمكن أخذه وبما يتناسب مع خصوصية المجتمعات التي أنجبته وفي هذا الصدد تؤدي الجغرافيا دورا مهما من خلال انعكاس عوامل البيئة المنتجة وخصائصها على طبيعة الأدب المنتج فيها,فمن المؤكد ان خصيصة الوقوف على الأطلال لاسيما في العصر

الجاهلي قد تميز بها الأدب العربي عن كثير من الآداب ,فهناك حضارة منتجة لفكر محلي لا يصلح لان يكون مادة تتناقلها الآداب مهما كان تأثيرها,مع العلم ان قضية تحديد ما يؤخذ وما يترك تتبع نقاط الالتقاء الإنسانية الطابع ومن المؤكد ان القيم التي تحضى باهتمام الآخر تتجسد فبها العمومية والسمة الإنسانية المتعلقة بالحاجات والتجارب الخاصة في كل زمان ومكان.

ثانيا- آليات التواصل الأدبي الناجح

لكل غاية وسائل ترجى بها,وعلى الرغم من كون الأدب نتاجا إبداعيا ذاتيا فانه لا يخلو من الغايات السامية,بل انه مستودع الأفكار السامية التي تهم الإنسان في رحلة وجوده على الأرض,وكنا قد أوضحنا في القسم السابق المقومات التي تكفل التواصل الحضاري لكل أدب ,ولابد من توضيح آليات هذا التواصل الحضاري وإجمالها بالنقاط الآتية:

1- الترجمة:

تمثل الترجمة إحدى الطرق المهمة التي ساهمت في التلاقح الحضاري بين الشعوب ولغاتها المتنوعة مثلما أنها مثلت وسيلة لنقل التأثيرات والتيارات والحركات الأدبية ,وكان من أهم انجازات الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية انتقال الفنون الأدبية الجديدة ومنها الرواية والتيارات الأدبية والنقدية الحديثة,كما كانت احدى الطرق المهمة التي أسهمت في تلاقح الحضارة العربية مع الحضارات الأجنبية وفتحت الباب واسعا إمام التأثيرات بشتى أشكالها والتي بدأت على نطاق محدود في العصر الأموي واتسعت بشكل كبير في العصر العباسي**(14)**وهي انتقال الآثار الفكرية والأدبية والعلمية من لغة إلى أخرى ويرافق هذا الانتقال ما يمكن تسميته بالبصمة الحضارية لكل امة ولغة ينقل منها الأثر,وتساهم الترجمة في التقريب بين الشعوب وتبادل وجهات النظر والآراء والأفكار والقيم ,وتتحكم في ذلك جملة من العوامل يقف في مقدمتها الاستعداد لتقبل الآخر وكذلك جودة العمل المترجم وعمقه الحضاري والفكري وطبيعة الترجمة ودرجة قرب النص المترجم عن الأصل,وما يهمنا في الأمر فاعلية عنصر الترجمة في إحداث التقريب المطلوب بين الثقافات,فقد كان للتزاوج الفكري بين المسلمين وأبناء الأراضي التي فتحوها مثلا اثر كبير في ظهور الترجمة مما يجعل الترجمة نتيجة للتلاقح الفكري حين ظهرت الحاجة إليها لتعزيز هذا التلاقح,كما كان لحاجات الدفاع عن الإسلام في وجه حملات الاستشراق الصليبية أثرها في تعزيز الحاجة لفهم ماهية هذه التوجهات من خلال ترجمتها واطلع العرب من خلال ذلك على طبيعة العقلية الغربية والطريقة التي يفكر بها الغرب ,على أن من

الحسنات التاريخية للترجمة أنها وفي العصر العباسي تجاوزت الآثار العلمية وفوائدها العظيمة وحققت أهدافا كبيرة في مقدمتها ظهور العلوم الجديدة ومنها الفلسفة التي أضفى عليها المفكرون العرب لمسة خاصة بعد أن نقلوا آثار أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم وهضموها وشرحوها وعارضوها وتم تقديمها لأوربا بأرفع طراز ما ساعد في تأسيس نهضة حضارية كبيرة بدا أن أوربا كانت مستعدة لها آنذاك,وذلك على الرغم من وجود مفكرين عرب وحكماء إلا أنهم لم يرقوا إلى منزلة الفلاسفة الإغريق وكان حظ العرب من المسائل الفلسفية ضئيلا قبل ظهور الإسلام **(15)**, فالفكر العربي الإسلامي لم ينتج إلا بعد اطلاعه ودراسته لمؤلفات مشاهير علماء الحضارات العريقة التي احتك بها العرب كما أن الحضارة الأوربية ما كانت لتقوم لولا ركيزتها العربية**(16)** وفي هذا الشأن يقول احد الباحثين(إن الحضارة العربية الإسلامية إنما ازدهرت لأنها انفتحت على التيارات الحضارية الأجنبية فالمسلمون القدامى ترجموا بحرية تثير العجب علوم الإغريق وفلسفتهم بل أنهم استخدموا المنطق الارسطو طاليسي بحرية ولباقة ووفقوا بينه وبين العقيدة الإسلامية)**(17)**ولو لم يقم الفلاسفة العرب بجهودهم لإنقاذ الفلسفة اليونانية لأهملت واندثرت لاسيما في العصور الوسطى ,وذلك الانفتاح كان احد انجح سمات الحضارة العربية الإسلامية على الإطلاق,ويقف ابن رشد في مقدمة هؤلاء الفلاسفة الذين حظوا بالإعجاب والاحترام وهو الذي ألف أكثر من عشرين كتابا شرح فيها آراء أرسطو وجالينوس وابقراط ,إلى جانب الكندي وابن طفيل وابن ماجه وغيرهم فضلا عن رسائل إخوان الصفا الشهيرة**(18)**وكان من نتائج هذا التلاقح الجميل أن ظهرت الفرق الإسلامية الكلامية وفي قدمتها المعتزلة الذين يعدون بحق ثمرة ايجابية للتقارب الحضاري وانفتاح العرب على الآخر ,فهم قد تعمقوا في الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها وعرضوها على بساط البحث واستطاعوا أن النفاذ إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التي لم يسبق إليها سابق**(19)** والأمر نفسه ينطبق على المتصوفة العرب الذين أثرت الفلسفة في توجهاتهم تأثيرا عظيما ,ونظرة إلى أشعارهم تؤكد عمق التأثير الفلسفي فيها لاسيما أشعار الحلاج وأشعار متصوفة الفرس كشيرازي وبالمحصلة فقد اثر الشعر الإسلامي في الغرب كما تأثر هو نفسه بالإغريق وهذا الشعر كما يقول غارودي يولي الحب في شكله الصوفي أهمية كبرى وهو نمط أنموذجي على ما أسهم به الشرق**(20)**,ولا زالت الترجمة تقوم بدورها الفعال في التلاقح الحضاري لاسيما في ظل التطور التقني والعلمي الهائل الذي يسر سبلها ووسع آفاقها ,لا بل وانتقلت من كونها مجهودا بشريا خالصا يقتصر على أهل الخبرة والدراية إلى التقنية وحيث برامج الترجمة الالكترونية التي قلصت الهوة الثقافية على الرغم من قصورها لاسيما فيما يتعلق بالآثار الأدبية بسبب طبيعة الأدب التي تميزه

عما سواه من مجالات الإبداع والفكر,وقد كان من نتاج هذه الطفرة العظيمة في الترجمة أن مهدت لتقريب من نوع آخر يختصر الزمن ويتجاوز الحدود يتمثل بالعنصر اللاحق وهو العولمة.

2- العولمة:

على الرغم من الموقف الضبابي المتباين من مفهوم العولمة وأهميتها عند الباحثين والدارسين إلا أنها تعمل من جانب آخر على ردم الهوة الثقافية بين الشعوب وتسهل التواصل وتبادل التأثيرات المختلفة,وان كانت تقوم على بسط وتعزيز هيمنة الأقوى وهو منطق فرضته طبيعة التحولات الحضارية التي أصابت العالم,وهي قطعا ترتبط بالفكر والثقافة,يقول د. الجابري في تعريفها:(هي نفي للآخر وإحلال الاختراق الثقافي والهيمنة وفرض نمط واحد للاستهلاك والسلوك وأنها نظام أو نسق ذو أبعاد تتجاوز دائرة الاقتصاد,وهي نظام عالمي يمتد إلى الفكر والثقافة) **(21)**,ومن الصعب حصر تعريفاتها بسبب تنوع المنطلقات التي تنطلق منها غير أنها ظاهرة مستمرة وسلسة وهي في أساسها اقتصادية جوهرها تحرير الأسواق ورفع القيود وخصخصة الدول وانتشار وسائل التكنولوجيا والاتصالات لتقليص المسافات كل ذلك في إطار الفكر الليبرالي الغربي**(22)**وهي ليست ظاهرة واحدة بل هي متعددة الأبعاد فهي سياسية واقتصادية وثقافية وفكرية تتجاوز الحدود والفوارق وتكرس فكرة العالم الواحد,من هنا فهي انجح طرق التواصل الحضاري التي عرفتها البشرية من حيث الفاعلية وذلك على الرغم من آثارها المدمرة على الأطراف الضعيفة تكنولوجيا واقتصاديا,إن جدل (حوار/صراع)الحضارات الذي يستقرؤه المفكرون ومنظرو العولمة يقع في نقطة مفصلية تحدد ايجابية العولمة وسلبيتها وهما كما جاء بهما روجيه غارودي في كتابه حوار الحضارات وصموئيل هنتجتون في كتابه صراع الحضارات وهما ابرز من نظر لها إلى جانب فرانسيس فوكوياما في كتابه نهاية التاريخ,فمن جهة لا بد أن يضمن الجميع احترام التنوع الحضاري والخصوصية الفكرية لكل امة كما لابد من حوار بين الحضارات يسهم بدرجة كبيرة في إزالة الحواجز المتراكمة من سوء الفهم المتبادل ومن الأفكار المسبقة القائمة على أسس غير صحيحة تختزنها الذاكرة الشعبية لثقافة شعب عن شعب آخر من الشعوب **(23)** .

ومن الباحثين من يؤكد على الأديان ودورها في ترسيخ مبادئ التسامح مع الآخر واحترام اختياراته ذلك لان الدين هو احد أهم المحركات التي تتعلق بالعقل البشري ولان جميع الأديان السماوية تقوم على فكرة التسامح وتقبل الآخر إلى جانب المسؤولية التي ينهض بها الإعلام بسبب الثورة المعلوماتية

الكبيرة في مجال التواصل والاتصالات**(24)**ولو نظرنا إلى الحضارات المتعاقبة والمتزامنة لوجدنا أن جوهرها واحد من حيث البنية والتركيب فسواء تعلق الأمر بالإسلام أم حضارة الغرب أو الصين أو المايا أو غيرها فهناك نقاط مشتركة بغض النظر عن تعقيد أو بساطة تلك الحضارات ومن أهم تلك النقاط سعيها إلى خدمة الإنسان وتسهيل حياته قدر المستطاع ,كما إن التعددية الحضارية للإنسان على الأرض ذات علاقة بالتعددية الثقافية التي تمنحها الحضارة بأسلوبها الخاص رغم أن الثقافة هي مكون حضاري في نهاية المطاف**(25).**

ومابين نار العولمة وجنتها فهي ظاهرة قائمة مهما سعى الإنسان إلى مقاومتها ولم يعد مجديا الوقوف بوجه حتمية التغيير الذي تفرضه ولا مناص من تقبل نتائجها لكن السبيل السليم في التعامل معها يكمن في إيجاد الطرق المناسبة للاستفادة منها في رفع مستوى الحياة والاستفادة من تجارب الآخرين وما وصلوا إليه وان نتقبل هذا الفارق الحضاري وألا نظل ننظر إلى الوراء متمثلين زمنا كنا فيه نقدم للعالم أنموذج الحضارة الراقية التي أسست لكل ما هو موجود الان من رقي وتطور,أي أن يكون لنا دور حضاري ووقفة مناسبة منها وان لا نظل أسرى الطروحات السلبية المتخاذلة التي تحرمنا من الاستفادة الحقيقية من مكتسبات التطور العلمي والتقني الهائلة وهي فرصة لا يمكن استغلالها بالشكل الصحيح ما لم تكن هناك أسس متينة للتواصل الحضاري السليم مع الآخر,وان نسعى لعكس مسار العولمة لتنطلق منا يوما ما وتعيد حمل قيمنا السمحاء وتفرض رؤيتنا الشاملة ونظرتنا العادلة حول تساوي فرص الجميع على الأرض بالعيش والتقدم والإسهام في رقي الإنسان واستمراره.

3- الأدب المكتوب بلغات أخرى:

لقد كان من نتائج التأثيرات المتبادلة بين الآداب ان شاع نمط مختلف من الأدب وهو الأدب المكتوب بلغات أخرى,وهو ليس جديدا إذا ما نظرنا إلى عوامل ظهوره والمتمثلة بالاستعمار والمجاورة وكذلك عنصر الهيمنة الاقتصادية والسياسية,فمن أمثلة الأدب الذي ظهر بتأثير الاستعمار الحديث ما نراه في الأدب المغاربي عموما والجزائري على وجه الخصوص ,ولا ننسى تأثير الفرانكفونية بوصفها ظاهرة ثقافية وفكرية إلى جانب أبعادها السياسية في ظهور تيار أدبي وهناك الكثير من الكتاب والباحثين والأدباء والنقاد ممن تأثروا بالثقافة الفرنسية المهيمنة في الجزائر وكذلك دراستهم في الجامعات الفرنسية واحتضان المؤسسة الثقافية الفرنسية لهم على عكس المؤسسات الثقافية العربية التي كان فشلها في استقطاب المنتوج الثقافي العربي واضحا ,وهي ليست تجربة جديدة على الأدب العربي مثلما أنها مرحلة مهمة من مراحل

تطور الأدب الجزائري الحديث أغنته وأضافت له الشيء الكثير وأوصلته الى مصاف العالمية **(26)**,وأما عنصر المجاورة فهو أمر طبيعي يصل إلى درجة الحتمية وذلك بسبب طبيعة التجاور الجغرافي الذي يفرض نوعا من التداخل الحضاري ليس على مستوى الأدب وحسب بل حتى على صعيد اللغة وتبادل المفردات إلى جانب حتمية قيام الصلات التاريخية بين آداب وحضارات الشعوب المتجاورة حتى تحققت القرابة الأدبية واللقاح الفكري ولا تنشأ في العادة صلات قوية بين الآداب إلا ذا سبقتها صلات فكرية وسياسية واجتماعية بين تلك الشعوب**(27)**.

وقد كان لظاهرة الاستشراق اثر كبير في التمهيد لانتشار الآداب المكتوبة بلغات أخرى وهو بأبسط تعريفاته دراسة الحضارة الشرقية الإسلامية من قبل باحثين ينتمون إلى حضارة أخرى ولهم بناء شعوري مخالف لبناء الحضارة التي يدرسونها وبمفهوم آخر فانه رؤية (الأنا) الشرق من خلال (الآخر) الغرب والاستشرق القديم هو رؤية الأنا الأوربي للآخر اللاوربي **(28)**ومن المعروف أنها ظاهرة ارتبطت بالاستعمار وكذلك بعوامل حضارية أخرى تقوم على الإعجاب بالشرق وتاريخه والافتتان بسحره مما دفع طائفة من الباحثين إلى تعلم لغاته ودراسة تاريخه وآدابه ومن ثم تطور هذا الإعجاب إلى فتح آفاق الكتابة بتلك اللغات ويمكن بذلك أن نعد الاستشراق واحدا من أكثر العوامل تأثيرا إلى جانب الاستغراب وهو المصطلح المقابل والمناقض له ,مع أن الاستشراق الآن قد تغير وورثته العلوم الإنسانية والثقافة بعد أن تخلى عن شكله التقليدي في وقت لا يزال الاستغراب في بدايته**(29)**وإذا ما تقدمنا في الزمن وبحثنا عن دلائل اخرى تخص الحضارة العربية الإسلامية وتأثيراتها وجدنا كاتبا أمريكيا هو جوناثان كوريل وهو صحفي مخضرم مهتم بالأبحاث والتقارير الخاصة بالعرب والمسلمين يقدم واحدا من أعظم الدلائل على الانصهار الطبيعي لحضارة الإسلام بالغرب ولا سيما أمريكا في كتابه المعروف(AL'America) وهو جملة أبحاث في الجذور العربية الإسلامية للمجتمع الأمريكي بدءا من التأثير الذي تم نقله عن طريق الاسبان الذين أتت به رحلات كولمبوس وصولا إلى المسلمين الزنوج في نيواورليانز حتى انه يذكر بعض كتابات الشاعر والأكاديمي رالف والدو ايمرسون لاسيما مقالته المعنونة(المحبة) وهي من اجلِ أعماله كما يذكر قد بدأت بالاستشهاد بالقرآن الكريم مع انه لم يكن مسلما بل كان قسا توحيديا موحدا شرع في رحلة روحية طويلة اعتنق فيها التقاليد الأدبية والدينية المتنوعة في الشرق لا سيما الشعر الفارسي الصوفي وكان يكن الإعجاب والاحترام لكبار شعرائه ومنهم سعدي وحافظ واعتنق مبدأ وحدة الأديان المتباينة إلى

جانب الاستشهادات بأقوال النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأقوال الإمام علي كرم الله وجهه وحضور بغداد الواضح في أعماله **(30).**

وأيا كانت النظرة إلى الاستشراق والاستغراب فهما وسيلتان للتواصل الحضاري وفي الحقيقة فقد عاد كليهما بالنفع الكبير على الحضارتين العربية والأوربية على حد سواء مع وجود الآثار السلبية كونهما مرتبطين بعنصر تباين القوى واختلال موازين السيطرة التي تجعل احدهما خاضعا للآخر,والعودة إلى ما قدمه المستشرقون الكبار للحضارة العربية والأدب العربي على وجه التحديد تكشف تلك الحقيقة,فترجمة الآثار العربية والإسلامية الأدبية الخالدة كالمعلقات والمقامات ورباعيات الخيام وغيرها بعد إعادة تحقيقها ونشرها ومقابلة أصولها المتناثرة هنا وهناك في مكتبات العالم ترك آثارها الكبيرة إلى جانب ما تركته ترجمات القران الكريم من آثار عظيمة في التفكير الأوربي وانتشار الإسلام بسبب هذا التأثير الكبير للقرآن الكريم على الرغم من جميع التحفظات على موضوع التراجم للقران الكريم ونقله إلى لغات أخرى الا انه كان احد ابرز المؤثرات التي قربت الحضارات قديما وحديثا بحكم شمولية الخطاب القراني ومعالجاته العميقة لكل ما يهم الإنسان ووجوده في الحياة.

ثالثا- معوقات التواصل الحضاري في الآداب المعاصرة

إن عملية التواصل الحضاري تمتد على مساحة زمنية شاسعة تستلزم مراحل طويلة من حياة الشعوب وتتدخل فيها عوامل كثيرة أهمها عامل التقبل الحضاري للآخر ودرجة الاستعداد للتواصل معه,ومن الطبيعي أن الآخر المستعمر لا يحظى عادة بالتقبل إلا انه يترك مع ذلك تأثيرا في الأمم التي يستعمرها,فقد كان من نتائج الغزو الفرنسي للدول العربية تأثيرات واضحة لا سيما دول المغرب العربي تمثلت باللغة والفكر والثقافة والأدب كما ذكرنا,إلى جانب ما أفرزته الحملة الفرنسية على مصر من نتائج أبرزها ظهور حالة من اليقظة التي ولدت رغبة في التعرف على الآخر والاتصال به والاستفادة منه والتشوق إلى نقل نموذجه المنتصر لاسيما عند النخبة من مثقفي مصر ,حتى توج هذا السعي بإرسال أولى البعثات العلمية إلى الغرب في عهد محمد علي باشا التي مدت جسور الاتصال الحقيقي للاحتكاك بالغرب وحضارته **(31)**على أن هناك معوقات تحد من طبيعة التواصل في مقدمتها النظرة الفوقية وضيق الأفق والتمركز حول الذات كما ان الفجوة الحضارية والتكنولوجية تؤدي دورا كبيرا في عرقلة التواصل الناجح وفي موضوع التواصل بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي فان حالة التخلف الحضاري الإسلامي

المعاصرة تخلق ازدواجية حادة في التوجه نحو الغرب إلى جانب العداء التاريخي والرغبة في مقاطعة الغرب المستعمر الذي يملك سجلا سيئا في علاقاته مع الشرق,كما ان الربط بين الغرب ومشروعاته التبشيرية المناهضة للإسلام والمسلمين ولد حالة من انعدام الثقة به إلى جانب كون الغرب دأب على تغليب مصالحه الخاصة على حساب الآخرين دوما من غير احترام ولا تقدير لإرادات الشعوب ,وفيما يتعلق بموضوع الهوية فان التمسك بها يزداد ويتمحور الإنسان حول ذاته كلما ضعفت ثقته بالآخر وهو أمر مرتبط بالتخلف الحضاري أيضا**(32)**.

وازدادت الفجوة اتساعا بين الإسلام والغرب اثر أحداث الحادي عشر من سبتمبر فلم يعد الحوار في العصر الحالي تفاعليا يسمح بالتأثير والاحترام المتبادل للثوابت والقيم والأهداف يصاحبها الاتهام الغربي للإسلام والمسلمين بكونهم سبب الأزمات الحضارية بين الغرب والإسلام وكانت أحداث سبتمبر ذريعة لتوكيد رؤية هنتنجتون في (صدام الحضارات) وسببا لاتهام المسلمين بالإرهاب **(33)**وتكوين صورة نمطية للمسلم تتلخص بالشخصية الإرهابية المدمرة التي تكره كل ما هو غير إسلامي.

كما ان من معوقات التواصل الحضاري الأخرى انعدام الحوار مع الذات ومن ثم الانغلاق عن الآخر تبعا للعوامل التاريخية والتراكمات التي نتجت عنها فارفض الحوار بدعوى الممانعة والانزواء في قداسة الإيديولوجية الفكرية والمطالبة بأسوأ أشكال المصادرة والمقاطعة والتقوقع داخل الذات لا يؤديان إلى غير الفشل في السعي لموازاة الآخر ومجاراته ومحاولة اللحاق به,كما لا يمكن تصور حوار ناجح من طرف واحد لأنه عندئذ سيفقد ابسط مقوماته وهو يقتضي الانفتاح والتقبل كخطوة أولى لتحقيق أهدافه المتمثلة بلقاء حضاري وتواصل فعال**(34)** .

إن سوء الفهم والركون المستمر إلى الماضي والنظر الى الوراء لا يمكن أن يؤدي إلا إلى مزيد من الصراع الذي ينهك القوة ويستنفذ الجهد والوقت والإمكانيات ويصرف الإنسان عن عملية البناء والتنمية لمجتمعه, ويجب أولا تكثيف الجهود لمحاولة ردم الهوة الثقافية أو على الأقل تقليصها لتترك مسافة مناسبة مع الآخر تضمن تحقيق الفائدة المتبادلة والتعايش السلمي الفعال ,وهو أمر يتطلب نشر الوعي بأهمية ما عند الآخر من أفكار وإمكانيات يحتاجها الإنسان في بناء مجتمعه وإدراك أن تحقيق نوع من التوازن ما بين الأخذ والعطاء يتحقق في مرحلة لاحقة ,والاعتراف أولا بالتفوق الذي فرضته جملة من العوامل التاريخية والتكنولوجية والاقتصادية ما يجعل هذا الآخر مصدرا مهما لأدوات إعادة بناء الحضارة.

وجميع هذه العوامل تنعكس على الأدب بوصفه نتاجا حضاريا يعبر عن خصوصية فكرية ,ويصطدم الأدب المرتبط بأمة أخرى بطبيعة العلاقة معها وعادة ما يكون التوجه منصبا نحو الاعتزاز المفرط بالهوية القومية للأدب وربطه باللغة التي تمثل عنوان هذه الهوية ,وقد نجد أن حالة القطيعة مع الآخر أدبيا قد تختلط بالرؤى العقائدية حتى تعد التيارات الأدبية والنقدية الجديدة الوافدة ضربا من البدع والضلالات التي يصل المنع لها إلى حد التحريم والتجريم ,فالكلاسيكية مثلا تلبي بزعم البعض طموح فئة معينة وهي طبقة الارستقراطيين وأعلت شان العقل أما الرومانسية فاستسلمت لضغوط العصر والعواطف ورفضت العقل وأما عيب الواقعية فهو رفضها تصوير معاناة الإنسان الفردية**(35)**وعلى شاكلة هذه الآراء السقيمة يتم التعاطي مع التيارات الوافدة وهي نظرة أحادية تفتقد إلى العقلانية والتفسير السليم للوقائع وتخطيء في قراءة المضامين الإنسانية والخصوصيات الحضارية للآخر مثلما تتجاوز فكرة ان المذاهب النقدية ما هي إلا اطر تصب فيها الأفكار والمضامين التي تلاءم كل أدب وان لكل امة تراثها الكلاسيكي وتحولاتها الخاصة في حياتها,كما أن الأدب فن يقوم على حرية التعبير عن مكنونات الذات ولا يمكن ان يكون خاضعا للأهواء والتفسيرات الشخصية والطروحات الغبية التي تقتل روح الإبداع الكامنة فيه,وهو ميدان من ميادين الحضارة وبه يقاس رقيها ولم يعد مجرد كتابات لا معنى لها مثلما انه جزء حي من تاريخ كل امة وكيانها,يقول توفيق الحكيم:(فالفن ليس في الهيكل,انه في الثوب,والفن هو الثوب الجديد الذي يلبسه الفنان للهيكل القديم انه الكسوة المتجددة لكعبة لا تتغير)**(36)**.

الهوامش

1- معجم المصطلحات الأدبية إبراهيم فتحي/ 11
2- نفسه/31
3- المعجم الأدبي - جبور عبد النور/ 315
4- العروبة بين الثقافة والغزو الثقافي في العصر العولمي الراهن-فايز عز الدين-مجلة المعرفة سوريا العدد 471 سنة 2002 ص 134.
5- أزمة الحوار الحضاري في عصر العولمة/5
6- حوار الحضارات-روجيه غارودي/115
7- نفسه/ 116
8- الأدب المقارن /215
9- نفسه/ 108
10- ينظر المصدر السابق/ 113 و صورة الغرب في الشعر العربي الحديث/ 32
11- صورة الغرب في الشعر العربي الحديث/ 36 نقلا عن أدب الرحلات د.حسين محمد فهيم عالم المعرفة 138 الكويت 1989 /167
12- موضوعات عربية في ضوء الأدب المقارن /42- 49
13- مفهوم الفروسية في التراث العربي وأثره في فروسية القرون الوسطى في أوربا/ 42
14- من تاريخ الترجمة عند العرب /147
15- اثر الترجمة في تطور الفكر العربي/69
16- حركة الترجمة في المشرق الإسلامي /461
17- الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي/13
18- اثر الترجمة في تطور الفكر العربي /70
19- حركة الترجمة في المشرق الإسلامي/376
20- حوار الحضارات /138
21- العولمة والهوية الثقافية "/16
22- العولمة ما لها وما عليها/15
23- نفسه/ 565
24- نفسه /566
25- الثقافة العربية في عصر العولمة/63
26- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية/220
27- الأدب المقارن/ 319
28- مقدمة في علم الاستغراب/ 29, 31
29- نفسه/ 30
30- هذه الامريكا-جوناثان كوريل/69-73
31- صورة الغرب في الشعر العربي الحديث/39
32- معوقات التواصل مع الآخر الغربي- د.صالح سليمان عبد العظيم -صحيفة البيان الإماراتية 6 نيسان 2007
33- مسارات وخبرات في حوار الحضارات-نادية حمود مصطفى—كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة- 2004/ 29
34- حوار الذات مدخل أساس لحوار الآخر-د.مريم آيت احمد-مجلة قضايا فكرية-المغرب-السنة السادسة العدد 22- 2011/ 19
35- نظرية الأدب في ضوء الإسلام/61-66
36- فن الأدب 12

المصـــادر

1- أدب الرحلات د.حسين محمد فهيم -عالم المعرفة- 138- الكويت- 1989.
2- الأدب المقارن- د. محمد غنيمي هلال- دار نهضة مصر-ط3- القاهرة.
3- اثر الترجمة في تطور الفكر العربي- سليم طه التكريتي- مجلة أقلام- السنة الأولى-الجزء السابع- بغداد- 1995.
4- أزمة الحوار الحضاري في عصر العولمة- د.هنية مفتاح احمد القماطي- كلية الآداب-جامعة قار يونس.
5- الثقافة العربية في عصر العولمة- تركي الحمد- دار الساقي-ط1- بيروت-1999.
6- حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة-د.رشيد الجميلي- دار الشؤون الثقافية العامة-بغداد- 1986.
7- حوار الحضارات –ر.غارودي-تعريب الدكتور عادل العوا- دار عويدات للنشر-ط4- بيروت-1999.
8- حوار الذات مدخل أساس لحوار الآخر-د.مريم آيت احمد-مجلة قضايا فكرية-المغرب-السنة السادسة العدد 22- 2011
9- الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية- نوال بن صالح- مجلة المخبر –جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر-العدد السابع-2011.
10- صورة الغرب في الشعر العربي الحديث- د.إيهاب النجدي- منشورات مؤسسة البابطين للإبداع الشعري- الكويت- 2008.
11 - العروبة بين الثقافة والغزو الثقافي في العصر العولمي الراهن-فايز عز الدين-مجلة المعرفة سوريا العدد 471 سنة 2002 .
12- العولمة ما لها وما عليها- د.محمد عبد القادر حاتم- الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة-2005.
13- العولمة والهوية الثقافية"-سلسلة لمستقبل العربي-محمد الجابري- عدد228- 1999
14- الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي-د.فيصل السامر-بغداد 1972 .
15- فن الأدب- توفيق الحكيم- دار مصر للطباعة-القاهرة.
16- مسارات وخبرات في حوار الحضارات-نادية حمود مصطفى—كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة- 2004.
17- المعجم الأدبي-جبور عبد النور- دار العلم للملايين-ط2- بيروت-1984.
18- معجم المصطلحات الأدبية- إبراهيم فتحي- التعاضدية العمالية للطباعة- صفاقس-1986.
19- معوقات التواصل مع الآخر الغربي- د.صالح سليمان عبد العظيم -صحيفة البيان الإماراتية 6 نيسان 2007
20- مفهوم الفروسية في التراث العربي وأثره في فروسية القرون الوسطى في أوربا-بومزار فوزيه-سلسلة الموسوعة الصغيرة- دار الشؤون الثقافية العامة-بغداد- 1986.
21- مقدمة في علم الاستغراب- د.حسن حنفي- الدار الفنية للنشر- القاهرة-1991.
22- من تاريخ الترجمة عند العرب- نافع توفيق العبود - مجلة التاريخ العربي- العدد العاشر-1979.
23- موضوعات عربية في ضوء الأدب المقارن- عبد المطلب صالح- سلسلة الموسوعة الصغيرة- دار الشؤون الثقافية العامة-بغداد-1987.
24- نظرية الأدب في ضوء الإسلام(القسم الثالث)- د.عبد الحميد أبو زوينة- دار البشير للنشر –عمان- 1990.
25- هذه الامريكا(AL-America)-أبحاث في الجذور العربية والإسلامية للمجتمع الأميركي-جوناثان كوريل-ترجمة حليم نسيب نصر-الدار العربية للعلوم ناشرون- ط1- بيروت- 2009.